

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)



قال تعالى : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) البقرة (216)

هذه آية لها أثر بالغ في حياة المؤمنين إذا وعوها، واهتدوا بهداها، ولها صلة بأحد أركان الإيمان : ألا وهو (الإيمان بالقضاء والقدر)، وهذا الخير ، فسره قوله تعالى في سورة النساء - في سياق الحديث عن مفارقة النساء:- (فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ) [النساء: 19].

معنى الآية الكريمة:

(كتب عليكم) : فرض .

وقوله : (وهو كره لكم) أي : شديد عليكم ومشقة . وهو كذلك ، فإنه إما أن يقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء .

«كره» بفتح الكاف: هو الشيء المكروه الذي تُحمل وتُكره على فعله.



أما «الكُره» بضم الكاف فهو الشيء الشاق، وقد يكون الشيء مكروهاً وهو غير شاق، وقد يكون شاقاً ولكن غير مكروه.

وقوله (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) (قد يقع للإنسان شيء من الأقدار المؤلمة، التي تكرهها نفسه، فربما جزع، أو أصابه الحزن، وظن أن ذلك المقدور هو الضربة القاضية على آماله وحياته، فإذا بذلك المقدور يصبح خيراً على الإنسان من حيث لا يدري، والعكس صحيح: كم من إنسان سعى في شيء ظاهره خيراً، واستمات في سبيل الحصول عليه، وبذل الغالي والنفيس من أجل الوصول إليه، فإذا بالأمر يأتي على عكس ما يريد.

وإذا تأملنا الآيتين الكريمتين ، وجدت أن الآية الأولى – التي تحدثت عن فرض القتال – تتحدث عن عبادة من العبادات وعن ألم بدني وجسمي قد يلحق المجاهدين في سبيل الله، وإذا تأملت الآية الثانية – وهي آية مفارقة النساء – وجدت أنها تتحدث عن علاقات دنيوية فهي تتحدث عن ألم نفسي يلحق أحد الزوجين بسب فراقه لزوجته!

إذن فالآية الكريمة تناولت أحوالاً شتى: دينية ودنيوية، وبدنية ونفسية، وهي أحوال لا يكاد ينفك عنها أحد في هذه الحياة.

ثم قال تعالى : (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) أي : هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم .

قال ابن القيم - رحمه الله -: فمن صحت له معرفة ربه والفقهِ في أسمائه وصفاته علم يقيناً أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها علمه، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب. . . ومتى ظفر العبد بهذه المعرفة سكن في الدنيا قبل الآخرة في جنة لا يشبه نعيمها إلا نعيم جنة الآخرة، فإنه لا يزال راضياً عن ربه، والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين، فإنه طيب النفس بما يجري عليه من المقادير التي هي عين اختيار الله له، وطمأنينتها إلى أحكامه الدينية، وهذا هو الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً. (الفوائد لابن القيم (ص: 91)

ولله در القائل (مصطفى حمام):

علمتني الحياة أن أتلقى كل ألوانها رضاءً وقبولا
ورأيت الرضا يخفف أثقالى ويلقى على المآسى سدولا
والذى ألهم الرضا لا تراه أبد الدهر حاسداً أو عذولا
أنا راض بكل ما كتب الله ومُزج إليه حمداً جزيلاً
ضل من يحسب الرضا عن هوان أو يراه على النفاق دليلاً
فالرضا نعمة من الله لم يسعد بها في العباد إلا القليل
والرضا آية البراءة والإيمان بالله ناصراً ووكيلاً

ولو قلبنا قصص القرآن، وصفحات التاريخ، أو نظرنا في الواقع؛ لوجدنا من ذلك عبراً وشواهد كثيرة، لعلنا نُذكّر ببعض منها، عسى أن يكون في ذلك سلوة لكل محزون، وعبرة لكل مهموم:

1- قصة إلقاء أم موسى لولدها في البحر!

ظاهر القصة الشر المحض؛ فإلقاء موسى في البحر معناه الهلاك المتحقق، ولولا أن الله ربط على قلبها لما ألقته، فلم تكن تعلم ماذا ينطوى وراء ذلك الإلقاء من الخير للأمة في زمنها، التقطه آل فرعون الذين إن وجدوه سيقتلونه، وكأنه تحد من الله لهم، فألقى الله محبة عليه؛ فكل من رآه أحبه وتعلق قلبه به؛ كما قال سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: 39]، فعاش وترى في قصر فرعون الذي أراد قتله؛ فعندئذ يتضح لنا معنى قوله: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19]، وصدق ربنا: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

2- وتأمل في قصة يوسف عليه السلام:

تجد أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على ما جرى ليوسف وأبيه يعقوب - عليهما الصلاة والسلام-. فقد قدر الله على يوسف الإلقاء في الجب وأن يباع كالعبد، ويسجن، ثم يرى الملك تلك الرؤيا التي أخرجت يوسف، وأنقذ الله الناس ببركة يوسف، وكيف رد الله والدي يوسف له وإخوانه، مقرين بفضله ومكانته، وصدق الله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

3- وتأملوا في قصة الغلام الذي قتله الخضر: بأمر الله - تعالى -؛ فإنه علل قتله

بقوله: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81)﴾ [الكهف: 80-81]. إذا رزقت بالولد، ذكرنا أو أنثى فالله هو المقدر للخير لك، وهو أعلم بما ينفعك

وما يضرك؛ فلا تكره الذكر أو الانثى؛ بل احمد الله على العطية، وقل الخيرة فيما اختار الله، وحتى لو لم ترزق بذرية و كنت عقيما فاحمد الله، وقل:

﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19]، وكما قال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (50) [الشورى: 49-50].

لمزيد من الفوائد في قصة موسى والخضر راجع هذه الخطبة :

مشاهد القدر في قصة موسى والخضر

وأیضا هنا : كشف أسرار القدر في قصة موسى والخضر

4- ولما مات زوج أم سلمة:

أبو سلمة - رضي الله عنهما - ، تقول أم سلمة - رضي الله عنها - : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيرا منها؛ إلا أخلف الله له خيرا منها". قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أول بيت هاجر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخلف الله لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - !

5- وحكى الشيخ علي الطنطاوي أن رجلاً قدم إلى المطار، وكان مجهداً بعض الشيء، فأخذته نومة ترتب عليها أن أقلعت الطائرة، وفيها ركاب كثيرون يزيدون على ثلاثمائة راكب، فلم أفاق، وإذا بالطائرة قد أقلعت قبل قليل، وفاتته

الرحلة، فضايق صدره، وندم ندمًا شديدًا، ولم تمض دقائق على هذه الحال التي هو عليها حتى أُعلن عن سقوط تلك الطائرة، واحتراق من فيها بالكامل! والسؤال: ألم يكن فوات الرحلة خيرًا لهذا الرجل؟! ولكن أين المعتبرون والمتعظون؟

6- رب ضارة نافعة : سمعت الدكتور راتب النابلسي يحكى هذه القصة يقول :
كان عندنا بدمشق طالب بكلية الطب وكان نحيفا ضعيف البنية ، ركب سيارة أجرة ليذهب للجامعة ، وبعد مرحلة من الطريق استوقف السيارة أحد الشبيحة رجل طويل عريض ضخم البنية ، سأل السائق هل عندك مكان خالي ؟ قال : لا ، ففتح باب السيارة الخلفي فوقع بصره على هذا الشاب فاستضعفه وأمسكه من ثيابه فحمله وألقى به خارج السيارة ،وركب هو !!! وبكى الشاب بكاء مريرا لشعوره بالقهر والظلم أمام هذا الرجل الظالم ، وبعد ربع ساعة مرت سيارة أخرى فركبها ، وكانت المفاجأة بعد 5 كم رأى السيارة الأولى التي كان يركبها وقد وقع لها حادث تصادم على الطريق، وانقلبت بمن فيها ، والركاب ما بين قتل وجريح !! فكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يري هذا الشاب آية أن هذا الرجل الظالم الذي انتزعه من السيارة بقوته فعل به خيرا ولم يفعل به شرا ، وأن هذا الظالم الذي استغل قوته في إخراج هذا الشاب من السيارة استعجل قدره الواقع به، أو قل انتقام الله منه لظلمه للعباد ، سبحانه الله العظيم !!!
فهذه الأمور الأنسان لا يفهمها عندما تقع ، لكن يظهر الله سبحانه وتعالى حكمته

بعد ذلك وأنت لا تدري ماذا برحم الغيب ، فلا تحزن إذا تعطلت سيارتك ، أو جرى لك حادث صغير ، إذا تعطلت عن عملك ، أو تأخرت عن سفرك ، فاعلم أن لله سبحانه وتعالى حكمة من وراء كل ذلك .

ليس شيء عند الله اسمه صدفة يحدث عشوائيا ، أو بدون ترتيب قال تعالى : - (إنا كل شيء خلقناه بقدر) - [القمر/49] فقد يجعل الله تعالى في الشر خيرا كامنا .

7- احترق الكوخ لينجو من كربته : وهناك قصة لرجل كان في سفينة وهبت عاصفة شديدة عليها في عرض البحر فأغرقتها .. ونجا بعض الركاب .. منهم رجل أخذت الأمواج تتلاعب به حتى ألقت به على شاطئ جزيرة مهجورة وعندما أفاق الرجل من إغمائه جثا على ركبتيه وطلب من الله المعونة وسأله أن ينقذه من هذا الوضع الأليم. مرت أيام والرجل يقتات خلالها من ثمار الشجر وما يصطاده من الأسماك، وينام في كوخ صغير بناه من أعواد الشجر ليحتمي فيه من برد الليل وحر النهار. وذات يوم ، والرجل قد أشعل النار لينضج طعامه فجأة هبت الريح الشديدة واشتعلت النار وتطاير شررها والتهمت كل ما حولها حتى الكوخ الذي كان بأوي إليه احترق . فأخذ يصرخ قائلاً :لم يتبق لي شيء في هذه الدنيا وأنا غريب في هذه المكان ، والآن أيضاً يحترق الكوخ الذي أنام فيه .. لماذا كل هذه المصائب تأتي عليّ؟! فنام الرجل من الحزن وهو يتضور جوعاً ، وفي الصباح كانت المفاجأة .

إذ وجد سفينة تقترب من الجزيرة وتنزل منها قارباً صغيراً لإنقاذه، فلما صعد على سطح السفينة أخذ يسألهم كيف وجدوا مكانه فأجابوه: لقد رأينا دخاناً كبيراً ، فعرفنا أن شخصاً ما يطلب الإنقاذ !! فسبحان من علم بحاله ورأى مكانه.. سبحانه مدبر الأمور كلها من حيث لا ندري ولا نحسب... فهذا شر كمن فيه خير لولا أن الله قدر أن تهب الريح بشدتها وتشتعل السنة اللهب في كل شيء حوله ما نجا ولا علم بوجوده أحد .

والخلاصة:

- 1- على المرء أن يسعى إلى الخير جهده أخذاً بالأسباب وليس عليه إدراك المقاصد، فإذا وقع شيء على خلاف ما يحب، فليتذكر هذه الآية المباركة.
- 2- من خلال هذه الآية يتبين للمرء أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، وأن الأمر بيد الله؛ فكان لزاما على العبد أن يتعلق بربه، ولا يعتمد على نفسه الضعيفة التي لا تعلم شيئا.
- 3- ومن ألطاف الله العظيمة: أنه لم يجعل حياة الناس وسعادتهم مرتبطة ارتباطاً تاماً إلا به سبحانه وتعالى.
- 4- الرضا بالله وعن الله ومعناه يجمع أمرين: الرضا بقضاء الله وقدره، والرضا بشرعه وأمره ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - رضي الله عنه-، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم-، يَقُولُ: (ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا). رواه مسلم

وَقِيلَ لِيَحْيَىٰ بَنَ مُعَاذٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: مَتَى يَبْلُغُ الْعَبْدُ إِلَى مَقَامِ الرِّضَا؟ فَقَالَ: إِذَا أَقَامَ نَفْسَهُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصُولٍ فِيمَا يُعَامِلُ بِهِ رَبَّهُ، فَيَقُولُ: إِنَّ أُعْطِيتَنِي قَبِلْتُ. وَإِنْ مَنَعْتَنِي رَضِيتُ. وَإِنْ تَرَكْتَنِي عَبْدْتُ. وَإِنْ دَعَوْتَنِي أَجَبْتُ. (مدارج السالكين (2/172))

5- التفويض إلى الله في جميع الأمور كما قال العبد الصالح: {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [غافر: 44] وعلمنا النبي - صلى الله عليه وسلم - أن نستخير الله في جميع أمورنا، فلرُبَّ أمر تكرهه فيه نجاتك، ولربَّ أمر تُحبُّه فيه ضررك وهلاكك، لذلك صدق من قال: مَا خَابَ مَنْ اسْتَخَارَ، وَلَا نَدِمَ مَنْ اسْتَشَارَ.

ففوِّضْ أَمْرَكَ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ مَا يَجْرِي حَوْلَكَ، فكل شيء يسير وَفْقَ تَقْدِيرِهِ - عز وجل - وهو يعلم ونحن لا نعلم.